

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الرابعة

لقيتُ هذه الدراسةُ من تشجيع الباحثين المشكور مادفعني إلى أن أنمّيها في طبعها الثانية بما أضفتُ إليها من مواد جديدة ، وهي مواد لا تغير شيئاً في النظرية التي قامت عليها ، وهي أن شعرنا العربي تطور مع الزمن في مذاهب ثلاثة : مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع ، بل هي تدعمها وتوثق مقدماتها ونتائجها .

وبنفس هذه الغاية رجعتُ أنظر في فصول الكتاب حين أخذت في إعداده للطبع مرة رابعة ، أريد أن أستوفي معانيه وحقائق مذاهبه بقدر ما أستطيع ، وأنا في أثناء ذلك تارة أنقح ما سبق أن كتبت ، وتارة أضيف زيادات جديدة ، كما أضيف بعض الأمثلة والشواهد لغرض تمام التوضيح وكمال البيان .

ورأيت أن أعيد كتابة الفصل الثالث من الكتاب الأول الخاص بالصنعة والتصنيع وتقابلهما في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، حتى أبسط الحديث في العلاقات الجديدة المادية والمعنوية التي أثرت تأثيراً واسعاً في الشعر العباسي وهي كثيرة . منها ما يتصل بالسياسة والدعوة العباسية . ومنها ما يتصل بالجنس ونزعاته . ومنها ما يتصل بالحضارة والتراث الثقافي الأجنبي الذي انتقل إلى العربية . ومنها ما يتصل باللغة وما جدّ فيها من أسلوب المولّدين ، وهو أسلوب مبسّط شفاف ليس فيه إغراب ولا ابتذال ، أسلوب يقوم على الألفاظ الواسطة التي لا تهبط إلى لغة الدّهماء والعامّة ولا ترتفع إلى لغة الأعراب الحوشية ، مع الجزالة والرصانة حيناً . وحيناً مع العذوبة والرشاقة والحلاوة . وهو أسلوب ينهض نهوضاً رائعاً بكل ما أُتيح للعقل العباسي من ذخائر الفكر ولطائف الذهن

وبدائع الخيال والتصوير ، مع تمثيل المجتمع بكل ما كان يخوض فيه .
ومن أهم ما يميّز هذا الأسلوب أنه لا تنقطع فيه الصلة بين القديم والحديد ،
فهو يحتفظ بخير ما في القديم من ألفاظ ، وكل ما يُدخله عليها إنما هو التهذيب
والتصفية والترويق ، وأيضاً فإنه يحتفظ بخير ما في القديم من معان وصور ،
وهو يشفع ذلك بدقائق الفكر العباسي الحديد واستنباطاته الخفية ومحاسن خياله
الحديث وتصويراته المونقة البارعة .

وبذلك تطور الشعرُ في العصر العباسي تطوراً مُشعراً . تتوثّق فيه العلل
والأسباب بين القديم والحديد توثقاً نحسُّ فيه ضرباً من المحافظة المنتجة الحية ،
كما نحس فيه ضرباً من التحول مع العصر وكل ما يداخله من ألوان الحضارة
والترف وآثار الثقافة والفكر العديق . وقد يتغلب عنصر التحول على عنصر
المحافظة عند بعض الشعراء ، وقد يشوبون ذلك بضرب من الثورة على القدماء ،
غير أن هذا لا يخرج بالشعر العباسي — حتى عند هؤلاء التأثيرين — على أصوله
التقليدية ، فالقديم يزاوج فيه الحديد مزاجاً يتيح له الخلوص من العقم
والحمود ، كما يتيح له التطور الحى في التعبير والتفكير والتصوير .

وقد حاولتُ في هذه الطبعة أن أوضح هذا التطور للشعر العباسي ، ودرست
أعلامه الأولين الذين مهدوه وثبّته ، وهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم
ابن الوليد ، حتى يستبين ازدهار مذهب الصنعة على أيديهم وما نشأ من مذهب
التصنيع الجديد . ومن أجل ذلك كله أعدتُ كتابة فصل الصنعة والتصنيع ،
وكل ما زدتُه أو أضفتُه إنما هو في سبيل استكمال معاني هذه الدراسة الأدبية
ومذاهبها الفنية . والله الهادى إلى سواء السبيل .

شوقي ضيف

القاهرة في ١٥ من مارس سنة ١٩٦٠

مقدمة الطبعة الأولى

حاولتُ في هذا الكتاب أن أضع للشعر العربي مذاهب فنية تفسر تطوره في عصوره وأقاليمه المختلفة ، وقد صادفتني مشكلتان أساسيتان . وهما : كيف أرتب هذا الركام الغائل من الشعر والشعراء الذي يمتد من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث ؟ ثم أى المصطلحات أتخذها للدلالة على مذاهب الشعراء ومناهجهم الفنية ؟ ورأيت أن أنحاز عن هذا الخليط المضطرب من الألفاظ الغريبة التي نقلها بعض نقادنا المحدثين من مثل (كلاسيك) و (رومانتيك) ونحوهما . فإن من الصعب أن نحمل أدبنا على مذاهب الأدب الغربي . وهو لا يمت إليه بوشائج تاريخية ولا فنية . وذهبت أبحث في الشعر العربي وموجاته المتعاقبة . فلم أجده فيه تجديدًا واسعاً ، بل رأيتَه يستمر في أغلب جوانبه بصورة واحدة . فداًئماً مديح وهجاء وفخر ووصف وغزل . وجعلني ذلك ألتفت إلى حقيقة مهمة ، وهى أن التطور في شعرنا العربي إنما كان في الصناعة نفسها ، أى في الفن الخالص وما يرتبط به من مصطلحات وتقاليد . حيثئذ رأيت أن أضع له مذاهب على أساس صناعته والفن فيه .

ونظرتُ في النقد العربي القديم ، فإذا النقاد يقسمون الشعراء قسمين كبيرين : قسمًا سموه أصحاب الطبع ، وقسمًا سموه أصحاب الصنعة . أما الأولون فهم الذين يسرون وفق عمود الشعر الموروث ، فلا يُسمَّون ولا يتأنقون ولا يتكلفون ولا يُغزَّون . وأما الآخرون فهم الذين كانوا ينحرفون عن هذا العمود إلى التمديق والتأنق ، أو إلى الإغراب والتكلف . ورأيت أن هذا التقسيم لا يقوم على أساس صحيح . وما الطبع والمطبوعون في الشعر والفن ؟ إن كل شعر متأثرٌ بجهد حاضر وموروث أكثر من تأثره بما يسميه نقادنا باسم الطبع .

وهل هناك شعر لا يعتمد فيه صاحبه إلى بعض تقاليد في أساليبه وموضوعاته ومعانيه ؟ إن من يرجع إلى العصر الجاهلي يجد الشعر خاضعاً لتقاليد ورسوم كثيرة يتوارثها الشعراء ، سواء في ألفاظه ومعانيه . أم في أوزانه وقوافيه ، بحيث لا يستطيع مطلقاً أن يُبدع لفكرة الطبع وما يُطَوِّى فيها من أن الشعر فطرة وإلهام ، فقد كان الجاهليون يصنعون شعرهم صناعة ويعملونه عملاً . وهم في أثناء هذه الصناعة والعمل يخضعون لمصطلحات ورسوم كثيرة .

ونحن لا ننكر أن الشعر في الأصل موهبة ، غير أن هذه الموهبة لا تلبث أن تتحول عند صاحبها إلى ممارسة ودراسة طويلة لتقاليد ومصطلحات موروثه في تاريخ الفن ، وهو يتقيد بهذه التقاليد والمصطلحات فيما يصنعه ويعمله تقيداً شديداً . وكان العرب القدماء أنفسهم يسمون شعرهم صناعة . ويصفونه بأوصاف الصناعات ، وكذلك كان الشأن عند اليونان وعند الأمم الحديثة جميعاً ؛ ومن أجل ذلك كان النقاد في الأمم الغربية يقرنون الشعر إلى النحت والتصوير والرقص والموسيقى ، فثله مثل هذه الأعمال الفنية يقوم على جهد وكَدْح . وهذا كله دفعني إلى أن أرفض فكرة تقسيم الشعراء إلى أصحاب طبع وأصحاب صنعة ، حتى في العصر الجاهلي ، إذ كان الشعراء جميعاً أصحاب صنعة وجهد وتكلف ، فقد حدثنا الرواة أن منهم من كان ينظم القصيدة في حول كامل . وليس من شك في أن من يتابع الشاعر الجاهلي يحس إحساساً واضحاً بأنه كان يُقبَّل على صناعته لإقبال الصانع على حرفته ، فهو يوفَّر فيها رسوماً وتقاليد كثيرة ؛ وهذا نفسه هو الذي جعلني أتخذ كلمة الصنعة التي استخدمها النقاد القدماء للدلالة على أول مذهب يقابلنا في الشعر العربي ، واتخذت زهيراً رمزاً لهذا المذهب ، ووصفت فنه في شعره ووضحت ما يرتبط به في صناعته من قواعد وتقاليد . واستمرت صورة هذا المذهب عند زهير مسيطرة مع ضعف أو قوة على الشعراء في العصرين الجاهلي والإسلامي . ورأيت أن أربط بهذه الصورة من الفن والصناعة الشعر الغنائي الخالص الذي كان يُصَحَّبُ بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية من العصر الجاهلي إلى العصر

العباسي ، فإن أصحابه لا يخرجون به - عادة - إلى زخرف وتنميق .
ولما انتقلت إلى العصر العباسي وجدت صناعة الشعر التقليدي شعر المديح
والهجاء ترقى وتتخضر ؛ فقد دارت عجلة الزمن ، وانتقل صانع الشعر من البادية
إلى المدينة ، ودخلت في الشعر العربي في أثناء ذلك عناصر جديدة من الحضارة
والجنس والثقافة ، وكان المذهب القديم مذهب زهير أو مذهب الصنعة
والصناعين قائماً . بينما ظهر بجانبه مذهب جديد كان يعتمد على الزخرف
والزينة ، فالشعر - في رأي أصحابه - حُلِيَّ وترصيع وبيدع . ومثَّلَ هذا المذهب
الجديد في القرنين الثاني والثالث مسلم بن الوليد ، ثم أبو تمام وابن المعتز ، بينما
مثَّلَ المذهب القديم بشَّار وأبو نواس ثم البحتري وابن الرومي . ولما خرجت إلى
القرن الرابع رأيت مذهباً جديداً يعمُّ فنَّ الشعر وصناعته ، وهو مذهب كان يقوم
على إعادة الصور المطروقة والمعاني الموروثة بأساليب من اللف والدوران
وإتيان المعنى من بعيد ، ثم يحاول الشاعر بعد ذلك أن يضيف تعقيداً إلى
أساليب الزخرف والتنميق السابقة أو يضيف تعابير وتراكيب شاذة من نحو
غريب ، أو تشيع ، أو تصوف ، أو تفلسف ، وما لبث أبو العلاء أن أوفى بهذا
المذهب إلى غايته من التعقيد الشديد في لغته وأوزانه وما كان يتصنع له من
لوازم مختلفة عرضنا لها في موضعها من هذا الكتاب .

تردَّدتُ ماذا أسمى هذين المذهبين العباسيين بالقياس إلى مذهب الصنعة
القديم ؟ وأخيراً رأيت أن أسميهما على التعاقب باسم مذهبي التَّصْنِيع والتَّصْنُوع .
والتصنيع في اللغة الزخرف والتنميق . أما التصنع فهو التطرف في التكلف
وما ينطوي في ذلك من تعمُّل وتعقيد ، وكان قد بدا لي أن أسمى هذه المذاهب
على الترتيب بأسماء الصنعة والزخرف والتعقيد ، ولكني آثرت التسمية الأولى لأن
تشابك الألفاظ فيها يدل على حقيقة دقيقة . وهي أن المذاهب الفنية في صناعة
الشعر العربي لا يفرق بعضها عن بعض مفارق واسعة في المعاني والموضوعات
والأوزان والقوافي . إنما تستقر مفارقتها في الصياغة والأسلوب .

هذه هي المراحل التي مرَّ بها الفن أو مرت بها الصناعة في شعرنا العربي ،

فقد بدأ بمذهب الصناعة . ثم انتقل إلى مذهب التصنيع ، ثم انتهى أخيراً إلى مذهب التصنع ، وجمّد الشعراء عند هذه المذاهب ولم يتجاوزوها إلى مذهب جديد ، وكأنما جفّت منابع القوة الدافعة التي كانت تُحدث المذاهب في الشعر والفن . وبحثتُ هذه المذاهب في الأندلس ومصر ، فإذا شخصية مصر أتم وضوحاً في تاريخ الشعر العربي من شخصية الأندلس على نحو ما سيراه القارئ في فصلها الخاص .

وأنا لا أنكر أنه صادفتني جوانبٌ مأكرة خلال تأليف هذا الكتاب لاتساع الموضوع وتشعبه ، فقد حاولتُ أن أرسم صورة واضحة للمذاهب الشعر العربي من أقدم عصوره إلى العصر الحديث ، واضطرتني ذلك إلى استخدام طائفة من المصطلحات اتخذتها لتؤدي وصف هذه المذاهب ، وهي موضوعة في ثنايا الكتاب بين أقواس صغيرة .

وهذه الدراسة المستفيضة لفن الشعر وصناعته عند العرب ، ولما مرّ به من أطوار وأحداث في عصوره وأقاليمه المختلفة جعلتني أتصل بمراجع كثيرة من دواوين الشعراء وما كتبه نقاد العرب عن فن الشعر عندهم وصناعته ، وكذلك رجعت إلى كل ما وجدته يتصل بالشعر والشعراء من كتب أدب عامة أو كتب تاريخية أو جغرافية ، ورجعت أيضاً إلى طائفة من كتب المستشرقين وكتب النقد الأدبي الحديثة عند الغربيين . وإني لأعترف بأن كتبنا القديمة غنية غنى وافراً بالنصوص التي تفسر ظروف الحياة الفنية تفسيراً وافياً . وأنا لا أزعم أني كشفتُ عن جميع جوانب الفن والصناعة في مذاهب الشعر العربي ومناهجه ، وإنما حاولت ذلك ودلت عليه ، غير منكر ما قد يكون في هذا البحث الجديد من أثارة إبهام أو غموض . وعلى الله قصد السبيل .

شوقي ضيف

القاهرة في ١٧ من أبريل سنة ١٩٤٣